فتح الاسلام : اشكالية الساحة والخطاب*

ثمة نقاش مفتعل في الاعلام اللبناني حول هوية فتح الاسلام وحقيقة انتمائها الى الحركـات الـسلفية,ومـصادر تمويلها والقوى المحركة لها .وكما هو مآل كل شيء في لبنان, من الفن الى الرياضة الى الاقتصاد الى الاجتماع ,فان التسييس ,وبالتالي التطيف والتمذهب , أصاب في الصميم مكونات التركيبة الاجتماعيـة والـسياسية, بـل اخترق الذهنية الثقافية العامة .وبالتالي ماكان الذي جرى ويجري في لبنان ليحدث لو لم يكن الانقسام الـسياسي العميق القائم اليوم مؤسسا على اصطفاف طائفي ومذهبي يعمل الجميع على تغذيته بمختلف الاساليب .

والحقيقة ان السياسيين اللبنانيين , العلمانيين منهم والطائفيين على السواء , قد اتقنوا فن الترميز والايحاء الطائفي والمذهبي , حتى وهم يتحدثون عن العلمانية والمواطنة والدولة المدنية .

المواجهة مع فتح الاسلام وقعت منذ البداية ضحية هذا النوع من الخطاب الـسياسي الـوظيفي . فالمعارضـة اللبنانية تصرفت بما تمليه عليها مقتضيات الصراع السياسي الداخلي. فمنذ الساعات الاولى تبين مـدى فداحـة الخسارة التي تعرض لها الجيش اللبناني باستهداف عناصره غدرا وسقوط اكثر من ثلاثين شهيدا , ومـع ذلـك اعتمدت المعارضة خطابا يقوم اتهام فريق السلطة باستقدام وتمويل هذه المجموعة لمواجهة حـزب الله ,ولنهـا قامت بتوريط الجيش في حرب مخيمات بدون التنسيق معه.

هذا التكتيك الذي اتبعته المعارضة يفضي الى هدف واحد, وهو جعل يد الحكومة مغلولة فـي مواجهـة هـذه المجموعة, ودفعها بالتالي الى تقديم تنازلات في عملية ابتزاز مفضوحة كما فسرتها قوى الاكثرية, التي سـيطر عليها الارباك بداية, الا انها ما لبثت ان بدأت حملة مضادة استندت فيها الى حالة تضامن شـعبي عـارم مـع الجيش اللبناني, وخاصة من البيئة السنية التي كانت على الدوام اشد الطوائف حساسية تجـاه كـل مـا يمـس المخيمات الفلسطينية .

* نشرت في جريدة الشرق الاوسط بتاريخ 2007/6/4 وجريدة المستقبل بتاريخ 2007/6/11.

والواقع ان ما حدث فيه شيء من الطرافة, فلا غالبية السنة في لبنان يصدقون ان فتح الاسلام تنظيم اصيل في انتمائه الى القاعدة, بل يعتبرونه مجرد تشكيل مخابراتي سوري ينبغي اجتثاثه والقضاء عليه, ولا الشيعة في لبنان يصدقون انه منتج مخابراتي بل يعتبرونه تنظيم تكفيري قاعدي, كما جاء في خطاب نصر الله, ومع ذلك لم يظهروا وحلفائهم في البداية الحماسة الكافية للجيش في حربه ضدهم. والواقع ان موقف المعارضة قد اكد شكوك الغالبية في حقيقة انتماء هذه المجموعة, فلو كان انتمائها الى الحالة السلفية القاعدية اصيلا وليس مفتعلا, لكان البيان المنسوب الى " القاعدة في بلاد الشام " الذي يتحدث عن "المجوس وحلفائهم الصليبيين والكفار في لبنان" سببا كافيا لموقف اكثر حزما وجدية ودعما للحكومة في التصدي لهذا التيار التكفيري. ولكان على ممثلي كل الطوائف ان يقدروا عاليا الموقف السني القوي في مواجهة هذه الظاهرة .

لا يختلف اثنان على ان ظروف تأسيس ونشأة "فتح الاسلام" غامضة، وما يزيدها غموضاً والتباساً هوية مؤسسها وهوية بعض من عرف من قياديها.

فهذا التنظيم لم يهبط بلا شك على مخيم نهر البارد من السماء، بل توافرت له حاضنة وتسهيلات لوجستية، داخل المخيم وعبر الحدود. وهو استولى في ما يشبه حفلة "التسلم والتسليم" على مواقع "فتح الانتفاضة " ومستودعاتها ومكاتبها والتي عجز ابو عمار طوال حياته ومنذ العام 1983 عن استعادتها إثْر الانشقاق المدعوم سوريا والذي قاده حينها ابو موسى وابو خالد العملة.

هكذا وبطرفة عين يأتي شاكر العبسي بعد ان يطلق سراحه من سجن المزة ومعه عشرات المسلحين ليتنقل بسهولة بين قواعد "فتح الانتفاضة"، ليستولي بعدها على مخيم نهر البارد كله.

التأسيس والخطاب الملتبس

لا أحد يعلم ما هي الصفقة السرية التي على اساسها أطلق سراح العبسي المتهم بالمشاركة في اغتيال الديبلوماسي الاميركي لورنس فولي في الاردن (28 تشرين الاول 2002) والتي اعدم فيها الليبي سالم سعد ابن

صويد والأردني ياسر فتحي فريحات وحوكم فيها غيابياً أبو مصعب الزرقاوي وشاكر العبسي وصدر بحقهما حكم بالاعدام. حينها اتهمت السلطات الاردنية المخابرات السورية بتقديم الملجأ والمساندة لمنفذي الجريمة. واذا كان لا أحد يعلم ماهية "الصفقة" فإن ابو خالد العملة، الاب الروحي لشاكر العبسي، وقائده التنظيمي، يعلم ماهيتها، لذلك كان لا بد من ادخاله الى السجن في سيناريو الانشقاق المزعوم عن" فتح الانتفاضة."

هذه النشأة الملتبسة لِـ"فتح الاسلام"، والمشتبه بخلفيتها المخابراتية، يرافقها التباس وشبهة في الخطاب والممارسة والتوقيت.

في الخطاب يصعب تنسيب هذه الحركة الى التيار الاسلامي السلفي الجهادي، وتحليل نصوص بعض التصريحات والبيانات والمقابلات الصادرة عن قياديها يظهر خطاباً شديد العمومية والغموض، فهم تارة جاؤوا ليعلنوا حكم الله على الارض، وتارة اخرى لنصرة اهل السنة، ومقاتلة الكفار، والجهاد لتحرير القدس ومقاتلة القوات الدولية في الجنوب اذا ما منعتهم من ذلك. وهذه كلها وردت في صياغات مقتضبة فيها ايحاءات سلفية يغلب عليها الافتعال والادعاء. بل ان بعض اللقطات التلفزيونية لهم فيها الكثير من الاستعراض .ويكفي للدلالة على ذلك مقارنة اي خطاب للزرقاوي او الظواهري او بن لادن بمقولات هؤلاء، ليتبين المرء مدى هشاشة طروحات "فتح الاسلام"، ومدى التدقيق الفقهي السلفي الذي يعتني به اولئك عند طرحهم لأي موضوع.

ومن حيث الخطاب ايضاً لم يثبت صدور اي فتوى من شيوخ السلفية الجهادية تعتبر سنة لبنان في حالة من الاضطهاد تجعل من امر نصرتهم امراً جهادياً. ربما كان هذا الامر يصح قبل 14 آذار 2005، لكنهم بعدها متهمون من قبل المعارضة، وفي مقدمها "حزب الله" والجنرال ميشال عون بالاستئثار بالحكم والتفرد بالحكومة.

العنوان الخاطىء

من حيث الممارسة لا تمتلك هذه الحركة قضية واضحة، فاذا كانت توحي بحكم التسمية، بارتباطها بالقضية الفلسطينية، فهي لا تقدم أي إضافة مما يفقدها أي تبرير او تميز حركي. مع ذلك تجاوزت هذه الحركة التباس التسمية لتدشن نشاطها "الجهادي" في الداخل اللبناني، ودائماً في توقيت ملتبس، بداية في تفجير الحافلات بالمدنيين الابرياء في عين علق، في رسالة طائفية واضحة من حيث الاستهداف ضد المسيحيين، عشية الاحتفال بذكرى 14 شباط في ساحة الشهداء في قلب بيروت. ثم اتبعت ذلك بحفلات "الغزو" المسلح على المصارف. وهي اساليب لم يلجأ اليها أي من الحركات السلفية الجهادية حتى الآن.

الخروج من المخيم

والواقع ان المسألة لا تحتاج الى تنظير كبير لاستغلال حماسة بعض الشباب، إذ يكفي قليل من الشعارات والاحاديث والآيات، مع بعض الاسقاطات المذهبية من وحي ما يجري في العراق على ما يمكن ان يجري في لبنان، خاصة بعد المواجهة التي يقودها "حزب الله" ضد الحكومة و"تيار المستقبل"، لاستقطاب البعض والتغرير بالبعض الآخر.

ثغرة نهر البارد تحولت الى بؤرة مركزية لهذا التنظيم، استقطبت بعض الشبان العرب، وتم توجيه البعض الآخر، من فائض احتياجات الساحة العراقية الى الساحة اللبنانية باعتبارها "أرض النصرة "والاستعداد. والواقع ان بعض هؤلاء الشبان السعوديين اكتشف بعد طول انتظار انه يتم توظيف حماستهم في قضايا لا علاقة لها بالجهاد، فقفل عائداً بعد استشارة بعض المشايخ وأوقف بعضهم على بعض المعابر الحدودية في رحلة العودة. ولادة هذا التنظيم لم يكن هدفها تنظيم الخروج بإتجاه العراق، فهذه المسألة كانت ولا تزال تتم على قدم وساق، فهناك الآلاف من المقاتلين والاستشهاديين وجدوا طريقهم الى العراق قبل "فتح الاسلام"، اما الطريق الى فلسطين فلم تكن يوماً في أولويات التيارات السلفية الجهادية.

الخروج من المخيم كان في اتجاه طرابلس، وتمثل بالجهد المكثف الذي بذله العبسي من خلال بعض اللبنانيين كشهاب القدور (ابي هريرة) صاحب التجربة السابقة مع" عصبة الانصار" وصدام ديب الذي كان موقوفاً في

السجون السورية وأطلق سراحه بـ"صفقة ما" بعد تدخل شخص من قيادي اسلامي طرابلسي مقرب من سـوريا وذلك قبل شهور من انفجار الاحداث الاخيرة.

لقد بذلت جهود منهجية ومنظمة لاختراق الساحة السنية الطرابلسية، وخاصة البيئة السلفية الناشطة فيها. وكـان هؤلاء قد بدأوا فعلا سلسلة اتصالات لتشغيل خلايا في مختلف احياء المدينة مستخدمين خطاباً تعبوياً وتبـسيطياً يقول إن السنة في لبنان بخطر، فقد كان غير مسموح لهم بالتسلح اثناء الوجود السوري، واليوم تخطىء السلطة الحالية بعدم السماح لهم بالتسلح كما غيرهم من الشيعة.

هذا النوع من الخطاب الشفهي يستهوي الشبان السلفيين ويتغذى من حالة الاصطفاف المذهبي والشحن الطـائفي المصاحب للصراعات السياسية في لبنان، والبيئة السياسية في الشمال مؤاتية لهذه التيارات خاصة اذا ما تجنبت الاصطدام بـ"تيار المستقبل" وثقل تمثيله الشعبي في الشارع السني، ويمكنها ان تصبح مؤاتية اكثر إذا ما ادعت هذه حرصاً زائداً على السنّة في لبنان، او حرصاً مفتعلا، كما تفعل "فتح الاسلام"، لتوظيف ذلك في سـيناريوات بدأت تتكشف بعض جوانبها.

صحيح أن التيارات السلفية في الشمال ليست ساذجة الى هذه الدرجة كي تنطلي عليها هذه اللعبة، لكن الصحيح ايضا انه يسهل اختراقها بحكم تكوينها التنظيمي المتعدد الرأس وتكوينها الفكري والفقهي الذي تستقي منه السلفية الجهادية الكثير من المفاهيم والمصطلحات، وبحكم الثقافة السياسية المتواضعة لغالبية قيادات هذا التيار وشـبابه المفعم بالحماسة لنصرة اهل السنة في كل مكان في العالم؟فما بالك في لبنان؟

تحرك قوى الامن والجيش، وبغض النظر عن الظروف المحيطة به، احبط مخططاً، كما تقول بعض الاوسـاط المطلعة، باءت بعض خيوطه الخطيرة والمرعبة. والتي تبدأ بما يشبه الانتفاضة للسيطرة على مدينـة طـرابلس ومخيم البداوي والتمدد باتجاه جرود الضنية، فضلا عن السيطرة القائمة بطبيعة الحال على مخيم نهـر البـارد، واعلان ما يشبه المثلث السني والمربعات الامنية، بدعم وتواطؤ ضمني من بعض القيادات الاسلامية القريبة من النظام السوري، والتي لم تخفِ حتى الان تعاطفها أو تجتهد لايجاد التبريرات لِـ"فتح الاسـلام" والـسعي الـى

ابقائهـــــــــا بـــــــــؤرة مفتوحـــــــــــة فـــــــــي الـــــــــشمال.

وبغض النظر عن صحة هذه المعلومات او دقتها، فإنها لو تحققت جزئياً فلسوف تفجر صراعاً بين سنة النظـام المتهمين بالتبعية لاميركا بحسب الاعلام السوري، والسنة الجهاديين الذين يكفرون الجميع. ولو نجح هذا لكـان دليلا على عجز الحكومة الحالية عن ضبط الأمن، ومبرراً لاستدراج عروض جديدة من قبل النظام الـسوري لعودته لضبط الامن والاستقرار في لبنان حرصاً على امن النظام الاقليمي.

وبغض النظر عن هذا السيناريو، فإنه يمكن تصور الأسوأ من ذلك. فلو تأخرت هذه المعركة مع" فتح الاسلام"، كان يمكن ان تدور من منزل الى منزل ومن حي الى حي في طرابلس، وكان يمكن ان تتحول الى حرب اهلية بين السنة، بديلا من الفتنة التي كان يخطط لها بين السنة والشيعة. بل كان يمكن هذا النوع مـن الكـوابيس ا ن يحرك شياطين الفتنة ضد المسيحيين باعتبارهم "مشركين وكفارا" في خطاب هؤلاء، فضلا عن موقفهم المعروف من الشيعة. فقد يعرف البعض كيف يطلق الشياطين، لكن احداً لا يمكنه ان يتحكم في مساراتها، اليس هذا هـو الـــــــــــــــدرس الافغـــــــــــــــــــاني الأبـــــــــــــــــــرز؟

قد تكون حركة "فتح الاسلام" حالة تنظيمية وظيفية او مشروعاً سياسياً، لكنه "لم يثبت بالوجه الشرعي"، بحـسب تعبير الاصوليين، ان هذه الحركة تنتمي بالاصالة الى التيار السلفي الجهادي، لكنها تملك كغيرها، قابلية التحول بحكم تطور الوظيفة والدور.

لكل ذلك يمكن قراءة مدى الخطأ الذي وقعت فيه المعارضة اللبنانية التـي أظهـرت افتقـاراً فادحـاً للـشعور بالمسؤولية وغرقها في مواقف كيدية وحرتقات صغيرة بدأت قبل ان تجف دماء شهداء الجيش الذي طالما تغنوا بدعمه نكاية بقوى الامن تحت شعار التقسيم الوظيفي للمؤسسات الامنية بين 14 و8 آذار، اذا لم نقـل التقـسيم المذهبي لهذه المؤسسات الا ان الخطأ الاكثر فداحة تمثل بتساهل أو استهتار الفصائل الفلسطينية التـي سـمحت بإختطاف مخيم نهر البارد.